

## الدرس الحادي عشر: القرآن الكريم معجزة خالدة ومتجددة على مر

### العصور

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة مسيلمة الكذاب مدعي النبوة الذي أراد أن يثبت للناس أنه يأتيه وحي من السماء فقام يؤلف قرآناً فأثبت كذبه أمام الناس، وكان مما قال: والزارعات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثارذات ثرداً، واللاقيات لقماء، إهالة وسمناً، لقد فضّلتكم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، لرفيقكم فامنعوه، والمعتر آووه، والناعي فواسوه، حيث أراد أن يعد سورة على وزن سورة العاديات فكان أضحوكة الناس وأيضاً أعد سورة أخرى عن الفيل قال فيها: الفيل وما أدراك ما الفيل، له خرطوم طويل. إن من تدبر في آيات القرآن الكريم عرف أن الله عز وجل جعل القرآن معجزة ودلالة وبرهاناً وتأييداً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فما من نبي يبعث إلا ويؤيد بمعجزات، وكانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة هي القرآن الكريم، والله تعالى يتحدى من يشكك في القرآن ويقول أنه ليس من عند الله، فقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (بُرُزُّوْا غَيْرًا)} [النساء: 82]، والله تعالى يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله فقال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: 88]، فلما أكثر الكفار من إثارة الشائعات الكاذبة بأن القرآن من قول محمد صلى الله عليه وسلم نفسه، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَظَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (شُرَكَاءِكُمْ تُؤَفِّكُونَ)} [يونس: 38].

ولقد أكثر الكفار من إثارة الشائعات الكاذبة والشبهات لصد الناس

عن هذا الدين، فقالوا عن القرآن: أن محمدًا يراه بالليل ويتلوه بالنهار فقال الله تعالى حكاية عنهم: {أَضَعَاثُ أَحْلَامٍ} [الأنبياء: ٥]، وقالوا: إن القرآن كذب وأعانه عليه آخرون فقال تعالى عن ذلك: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} [الفرقان: ٤]، وقالوا: إنه قصص السابقين تملى عليه صباحا ومساء فقال الله تعالى عن ذلك: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (وَلَا)} [الفرقان: ٥]، وقالوا: إن له جينا أو شيطانا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان، فقال تعالى رداً عليهم: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (وَمَا كُنَّا كُنَّا) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (كُنَّا كُنَّا)} [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢]، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المذنب وما جربتم على الرسول كذباً، ولا فسقاً، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟ وكان مما قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنه شاعر وكلامه شعر فقال الله تعالى رداً عليهم يصف الشعراء بثلاث صفات ليست في رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (كُنَّا كُنَّا) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (وَمَا كُنَّا كُنَّا) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (نَزَلَتْ كُنَّا كُنَّا)} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

وقالوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، فكيف هو نبي! فقال الله عنهم: {وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (كُنَّا كُنَّا)} [الفرقان: ٧]، وقالوا: إنه بشر فكيف أنزل الله عليه القرآن قال تعالى عن ذلك: {مَا أُنزِلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [الأنعام: ٩١]، ورد الله عليهم بأن كل قوم أنكروا على رسلهم رسالتهم قال تعالى عنهم: {إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ - مِّثْلُنَا} [إبراهيم: ١٠]، فقالت رسلهم لهم {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ - مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: ١١]، فالأنبياء والرسل لا يكونون إلا بشراً، ولا منافاة بين البشرية والرسالة. وكذلك أنكروا البعث فقال تعالى عنهم: {أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (إِنَّا وَمَا) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (زَيْنًا وَمَا)} [الصافات: ١٦ - ١٧]، وكذلك قالوا عن البعث بعد الموت إن هذا لأمر بعيد الحصول قال تعالى عنهم قولهم: {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق: ٣]

وقد يتوهم البعض أن التحدي القرآني كان للعرب فقط، هذا وهم كبير، فإن التحدي موجه إلى العالمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولم يأت دين من الأديان بمعجزة توضع بين أيدي الناس يبحث فيها أهل كل عصر بوسائل عصرهم؛ مثلما أتى الدين الإسلامي بهذا القرآن، فكأن النبوة بهذا القرآن متجددة أبداً، ولكي يقيم ربنا تبارك وتعالى الحجة على أهل العصور المتأخرة أبقى لهم فيه العديد من الآيات الكونية والتي تحوي من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفاً لأحد من الخلق في زمن الوحي وذلك لأهداف وحكم يعلمها الله سبحانه وتعالى.

ولو تدبرنا آيات القرآن ونظرنا في أوامر الله وما جرت عليه من صلاح، فهي أوامر بالتوحيد والعقيدة أو بالصلاة أو بالزكاة أو بالحج أو بالصوم أو ببر الوالدين أو بصلة الأرحام أو بالدعوة إلى الله أو بالجهاد في سبيل الله.. كل الأوامر لو تفكرت فيها تجد أن في مشروعاتها خيراً عظيماً لهذه الأمة.

فهذه الصلاة يقول الله تعالى عنها: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت:45] لأنك تستحي أن تعمل منكراً وستصلي بعد قليل أو كنت تصلي قبل قليل وتناجي رب العالمين الذي أمرك بتجنب الفواحش والمنكرات.

ويقول الله تعالى في الزكاة: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} [التوبة:103] فهل تدري أنك إذا دفعت الزكاة أنك تطهرت وزكوت؟ وما معنى تطهرت؟ أي: زكيت نفسك وطهرتها، فانتصرت على النفس، أخرجت المال، وهو تحت قدمك، وصرت أنت سيد المال، لكن إذا بخلت بالمال ولم تخرج زكاته تصير أنت عبداً للمال وعبداً للدنيا.

وهذا الصيام يقول الله عز وجل عنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:183] فثمره الصيام التقوى فإن النفس إذا امتنعت عن الحلال طمعا في مرضاة الله تعالى وخوفاً من عقابه فأولى أن تنقاد نفسه للامتناع عن الحرام.

وأن الإنسان إذا جاع بطنه صلحت سائر جوارحه، فالصيام يؤدي إلى قهر الشيطان وكسر الشهوة وحفظ الجوارح، وأن الصائم إذا ذاق ألم الجوع أحس بحال الفقراء فرحمهم وأعطاهم ما يستجوعونهم، إذ ليس الخبر كالمعاينة وهكذا.

وأيضاً فإن من أعظم مقاصد الحج تهذيب سلوك المسلم الحاج، يقول الله عز وجل عنه: {الْحُجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: 197].

فالقُرآن الكريم فيه صلاح الفرد والمجتمع، وفيه صلاح البشرية جمعاء، أنظر وتدبر أخي الكريم لقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

فالله سبحانه وتعالى يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف في حقه بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه، ويأمر بالإحسان في حقه بعبادته وأداء فرائضه على الوجه المشروع، وإلى الخلق في الأقوال والأفعال، ويأمر بإعطاء ذوي القرابة ما به صلنتهم وبرُّهم، وينهى عن كل ما قُبِحَ قولاً أو عملاً وعماً ينكره الشرع ولا يرضاه من الكفر والمعاصي، وعن ظلم الناس والتعدي عليهم، والله - بهذا الأمر وهذا النهي - يعظكم ويذكركم العواقب؛ لكي تتذكروا أوامر الله وتنتفعوا بها.

والله سبحانه وتعالى قد استحفظ اليهود التوراة فخانوا وبدلوا، واستحفظ النصارى الإنجيل فخانوا وبدلوا، لذا فالله جل وعلا لم يستحفظ المسلمين القرآن؟ ولكنه تعهد بحفظه، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (٢١) [الحجر: 9].

ولا نعلم كلاماً قط في الأرض يحفظ كله ولا يغادر منه حرف إلا القرآن، فترى الطفل الصغير الذي لا يحسن المعاني يحفظ القرآن ولا ينساه.

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَبْشَرُوا فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تُهْلَكُوا، وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا" (1)، قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} [القمر: 17].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

\* \* \*

(1) (صحيح) أخرجه (طب)، وصححه الألباني في ص. ج 34.